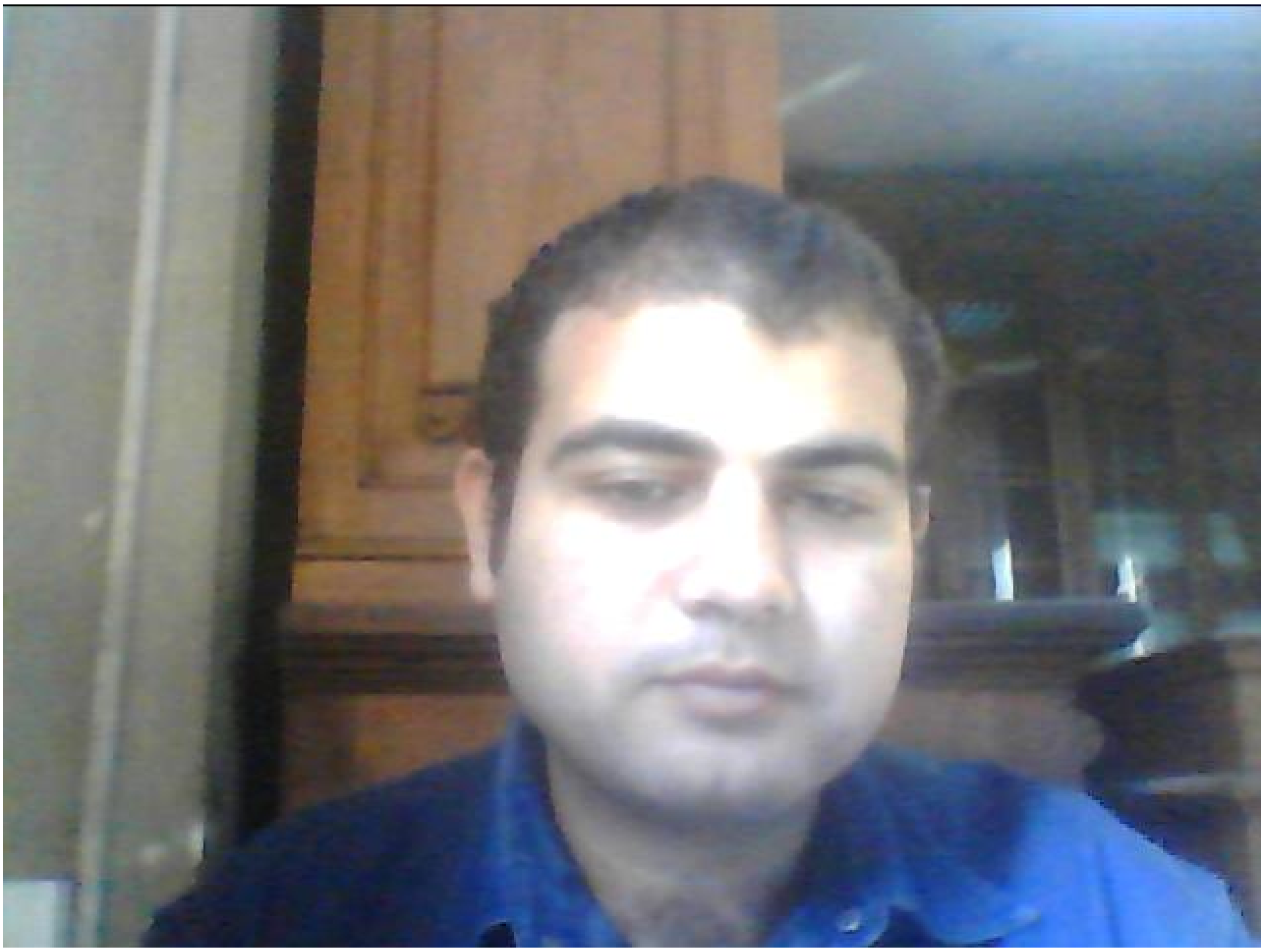


مقالة بعنوان

الملاحم الفرعونية

بقلم /
محمد عبد الرازق محمود عطية
حاصل على الليسانس من كلية الآداب
جامعة عين شمس قسم الحضارة الأوربية
لعام ٢٠٠٨ م

ـ ١ ـ

مقدمة

كثير من دارسي آداب الشعوب و الحضارات القديمة ، يهتمون بدراسة كل شيء يختص بالملاحم التي وردت في آداب كل الحضارات القديمة لكن القليلين جداً يهتمون بدراسة الملاحم الفرعونية ، لدرجة أنه يوجد من الناس من يعرف جيداً أنه كانت توجد ملاحم يونانية و رومانية و فارسية و هندية ، لكنه لا يعرف أنه كانت توجد أيضاً ملاحم فرعونية قديمة ، و حتى من يدرس هذه الملاحم يدرسها كوثائق تاريخية و ليس كنصوص أدبية تستحق الدراسة من ناحية البلاغة و الفصاحة و الأسلوب اللغوي (فيما عدا القليل من أساتذة المؤرخين مثل "سليم حسن" و "كلير لاكونت" مؤلف كتيب "الأدب المصري القديم" ، إلخ . لذلك ، أردت أن أتحدث عما أعرفه من الملاحم الفرعونية و أستنتج من خلالها شيئاً من السمات المميزة للملاحم الفرعونية .

ما هي الملحمة ؟

قبل أن أتحدث عن الملاحم الفرعونية ، يجب أولاً أن نعرف ما هي الملحمة و ما هي صفاتها و ما الذي يميزها عن بقية الأشكال الأدبية .
في كتاب "الأدب الشعبي" لدكتورة / ثناء أنس الوجود يوجد رأيان حول الملحمة في صفحة ١٤٧ و ١٤٨ . الأول لعبد الحميد يونس و فيه يرى أن شعراء الملاحم يعتمدون على الأساطير في تأليف الملحمة و يستمدون منها أشياء كثيرة، بعد تعديلها ، و أن كلمة "ملحمة" مستمدة من التلاحم بين الإنسان و المجتمع أو بين الإنسان و إنسان آخر في مجالات مثل الحروب أو إصلاح أمور الحياة ، و يختص بهذه الكلمة نزع اللحم من العظم و ذلك يبدو جلياً في التحام الجيوش في ميدان القتال .
و الثاني لفاروق خورشيد يرى فيه أن الملحمة نوع من الأدب له قواعد و أصول . لأنها تعتمد على شيئين أساسيين هما القصص الخرافية ، و دور البطل فيها حيث يتم تصويره كنصف إله أو مؤَيَّدٍ من الآلهة ، و ليس لديه القدرة على التمرد على الآلهة لأنها هي التي تسانده في مواجهة أعدائه من البشر أو الآلهة أو ذوي القوى الخارقة .

و الملحمة في لسان العرب لابن منظور تعني الوقعة العظيمة القتل أو موضع القتال ، و بذلك يكون مفهوم الملحمة لدى أي شخص هو قصة تحكي تفاصيل قتال حامي الوطيس .

يبدو لي مما فهمته من هذه الآراء أن كل من قال رأياً حول الملحمة استمده مما اطلع عليه من الملاحم ، و قد استنتجتُ هذا الرأي لأني لاحظتُ أنّ كل ما صدر في الرأيَّيْنِ السابقين لعبد الحميد يونس و فاروق خورشيد من وصف للملحمة هو موجود فعلاً في ملحمة الإلياذة و الأوديسيا اليونانيَّتَيْنِ ، و جلجامش البابلية ، و بعل الفينيقية أو الكنعانية ، و غير ذلك من الملاحم . من خلال ذلك يمكنني أيضاً أن أستنتج مفهوماً آخر للملحمة من خلال ما استطعتُ فهمه من الملاحم القديمة التي اطلعتُ عليها . فقد لاحظتُ أن ليس الملاحم كلها تتحدث عن قصص تاريخية حقيقية ، بل توجد ملاحم تتحدث عن قصص خيالية مثل الملاحم العراقية التي يكون أبطالها من الآلهة و ملاحم تتحدث عن قصص حقيقية و لكن مؤلفيها أضافوا إلى الأحداث الواقعية أحداثاً خيالية و هذا ما يسمى لدى معظم الناس بالملحمة . فالملحمة إذاً _ في رأيي _ قصة أدبية تتحدث عن صراع حدث فعلاً في الماضي و خاضه بطل ما من أجل أهله أو من أجل قيم معينة و في هذه القصة تروَى الأحداث بشكل أدبي بلاغي و يضاف إلى الأحداث الحقيقية فيه أحداث خيالية تزيد من إثارة الموضوع و تبرز البطل أمام الجميع ، و في الملاحم القديمة التي قرأتها _ سواء كانت يونانية أو فرعونية أو كنعانية (فينيقية) أو بابلية أو سومرية _ نجد بطل الملحمة يسعى إلى هدفه إما بمغامرات يقوم بها (كما في الأوديسيا اليونانية و جلجامش البابلية) أو بمعارك يخوضها (مثل الإلياذة اليونانية و قادش الفرعونية) أو بكليهما معاً (مثل ملحمة بعل الفينيقية و سنوهي الفرعونية) ، و تنتهي الملحمة عادة إما بانتصار البطل على أعدائه و العقبات التي تقف في طريقه أو بموته في سبيل تحقيق هدفه .

خلاصة القول ، إن الملحمة هي رواية أدبية تعرض بشكل أدبي أحداثاً تاريخية ممزوجة بأحداث خيالية ، و تدور أحداثها حول صراع ما خاضه بطلٌ ما أو شعبٌ ما في فترة من فترات التاريخ .

الفصل الأول
متى بدأت كتابة الملاحم الفرعونية

**قبل أن أتحدث عن بداية الملاحم الفرعونية يجب أن نسأل أنفسنا سؤالاً هاماً :
هل عرف الفراعنة فن الملاحم ؟ و إذا كانت الإجابة نعم ، فما الدليل على ذلك ؟**

قلنا _ فيما سبق _ أن الملاحم المتعارف عليها بين الجميع تمتاز بأنها قصة تتكون من أحداث تاريخية ممزوجة بأحداث خيالية ، هذه الأحداث فيها صراع يخوضه بطل الملحمة من أجل أهله أو من أجل شيء ما يتعلق بمصيره ، و أنه يخوض هذا الصراع إما بالقيام بمغامرة أو بالاشتراك في معركة . كذلك تُعْرَض الملحمة في شكل أدبي بلاغي .
إذا بحثنا في الأدب الفرعوني ، فسنجد كثيراً من القصص الأدبية تنطبق عليها هذه الصفات . فقصة "سنوهي" نجد البطل "سنوهي" يخوض صراعاً عن طريق القيام بمغامرات يهدف منها إلى إنقاذ حياته كلما تعرض للموت ظلماً ، و في قصة "قادش" يقاتل البطل "رعمسيس الثاني" الحيثيين من أجل الحفاظ على أملاك مصر في الشام ، و يخوض في الحرب مغامرة يبغي منها إنقاذ حياته ، و تمتزج القصة بقصة خيالية تحكي عن نزول الآلهة إلى ميدان الحرب ليساندوا البطل المصري الذي تخلى عنه جنوده . و في قصة "حصار يافا" يقوم القائد المصري "جحوتي" بمغامرة للاستيلاء على مدينة يافا و تحقيق النصر للقوات المصرية في الشام . كل هذه القصص الفرعونية تنطبق عليها صفات الملحمة ، و من ثم يتضح أن الفراعنة عرفوا فن الملحمة منذ عهود طويلة . و السؤال الهام الآن هو : متى بدأ ظهور فن الملاحم في مصر ؟
لم أجد في كتب التاريخ الفرعوني التي قرأتها من تحدث عن بداية ظهور الملاحم الفرعونية . ذلك أنه _ كما ذكرتُ في البداية _ لم يهتم المؤرخون بدراسة الملاحم الفرعونية كنصوص أدبية إلا القليلين منهم مثل د/ سليم حسن صاحب موسوعة مصر القديمة ، و كلير لاكونت صاحب كُتَيِّب الأدب المصري القديم . غير أنني بحثتُ عن الملاحم الفرعونية في الكثير من الكتب التاريخية و من أهمها موسوعة

"مصر القديمة" لسليم حسن ، و كانت أقدم ملحمة فرعونية قرأتها هي قصة(١) "سنوهي" التي تنتمي إلى الأسرة الثانية عشر الفرعونية في عصر الدولة الوسطى ، و لكن لا أستطيع أن أقول أنها أول ملحمة يكتبها الفراعنة أو أول محاولة لكتابة ملحمة فرعونية . ذلك لأنها ملحمة مكتملة الأركان و ملحمة ناضجة تتوافر فيها عوامل الملحمة الجيدة ، مما يشير إلى أنها نتاج محاولات سبقت كتابة هذه الملحمة . لهذا كان من الواجب أن أنظر إلى النصوص الأدبية في فترة أقدم من ذلك ، فعثرت على نصائح "أمنمحات الأول" لابنه (٢) و فيها يحكي الفرعون لابنه قصة مؤامرة دُبِّرَتْ لاغتياله في أسلوب أدبي ملحمي جميل ، إلا أنها لا ترقى لمستوى الملحمة لأنها لم تكن رواية مفصلة لما حدث بل كانت مثالاً صغيراً على نصائح الفرعون لابنه ، ثم رجعتُ إلى الوراء أكثر من ذلك فعثرت على قصة أخرى كُتِبَتْ في عصر الأسرة السادسة تحمل طابعاً ملحمياً لكنها ليست ملحمة هي مذكرات القائد "وني" قائد الجيش المصري في عهد الفرعون "بيبي الأول" يتحدث فيها عن قصة حياته و عن مغامراته و عن علاقته الوطيدة بالفرعون و عن الحملات التي شنها على قبائل الأسيويين الذين حاولوا القيام بغارة على مصر ، كما يعتبر هو من اخترع سلاح البحرية أو من أنشأ نظام الأسطول الحربي لأنه أول قائد في التاريخ يستخدم السفن و المراكب في الحرب (٣) . أما الكتب الفرعونية التي كُتِبَتْ قبل ذلك العصر فمعظمها كتب فلسفية أو تحمل نصائح ، أي ليس بها طابع ملحمي ، و لكنني لا أستطيع أن أجزم بأنّ مذكرات "وني" كانت أول محاولة فرعونية لكتابة ملحمة ، لأننا حين ننظر إلى عصر أقدم من ذلك بكثير و هو العصر الذي لم يستعمل فيه الإنسان المصري الكتابة بكثرة ، نجد الملوك المصريين كانوا ينقشون رسومات تسجل أحداث حروبهم و انتصاراتهم على أعدائهم مثل صلاية الليبيين التي فيها رسومات تسجل انتصار الملك عقرب على القبائل الأجنبية ، و هذه الصلاية موجودة بالمتحف المصري ، و أيضاً لوحة الملك مينا (نعرمر) المشهورة التي تسجل انتصاره على مملكة الشمال و توحيده للقطرين ، و هي أيضاً موجودة بالمتحف المصري .

الهوامش

(١) وردت قصة سنوهي في كتاب "مصر القديمة" تأليف / د: سليم حسن ، الجزء السابع عشر ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٠ . من ص٣١ إلى ص٤٦

(٢) وردت نصائح أمنمحات الأول في كتاب "مصر القديمة" لد/ سليم حسن ، الجزء السابع عشر ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ . من ص ١٩٨ إلى ص٢٠٥

(٣) قصة "وني" موجودة في كتاب "مصر القديمة" ، د/ سليم حسن ، الجزء الأول ، و الجزء السابع عشر ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ . من ص ٣٦٩ إلى ص ٣٧٣

بناء عليه فإنه يتضح أن الفراعنة حاولوا تسجيل أعمالهم البطولية من قبل أن يعرفوا الكتابة ، و ما دامت الملحمة تهدف إلى تسجيل بطولات شعب ما أو شخص ما في فترة تاريخية ما ، فإن الفراعنة كانوا يميلون إلى فن الملحمة من قبل أن يعرفوا الكتابة ، و حين عرفوها بدأوا يميلون إلى تسجيل بطولاتهم بأسلوب ملحمي و كان أولهم القائد "وني" . إذاً يبدو من الواضح أن الفراعنة قد عرفوا الأسلوب الملحمي قبل اختراع الكتابة ، أي منذ عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد على الأقل . لكن هل كان الفراعنة أول من عرف فن الملحمة و استخدمه ؟

الإجابة عندي هي لا ، فبدراسة ملاحم الحضارات القديمة نجد أن الحضارة السومرية سبقت الحضارة الفرعونية في فن الملاحم نظراً لأنه وُجِدَتْ بالفعل ملاحمٌ سومرية في العراق تنتمي إلى الألف الثالثة قبل الميلاد (٤) ، بينما أقدم ملحمة فرعونية قرأتها أنا شخصياً هي قصة "سنوهي" و تتحدث عن القائد "سنوهي" أو "سانهت" الذي عاش في عصر الأسرة الثانية عشرة أي في بداية الألف الثانية قبل الميلاد . بذلك يكون السومريون قد سبقوا الفراعنة في كتابة الملاحم ، لكن هل أخذ الفراعنة فن الملاحم من شعوب أخرى كالسومريين مثلاً ، أم كانت الملاحم الفرعونية فناً فرعونياً أصيلاً ؟

لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن نطلع على أسلوب و ملامح الملاحم الفرعونية ، و على أسلوب و ملامح ملاحم الشعوب الأخرى .

<u>الهوامش</u>

(٤)كتاب "من ألواح سومر" تأليف / صمويل كريمر ترجمة طه باقر ، مراجعة و تقديم الدكتور أحمد فخري ص٣٨٢

ه

الفصل الثاني
هل اقتبس الفراعنة فن الملحمة من شعوب أخرى؟

لكي نعرف إجابة هذا السؤال يجب أن نعرف أولاً إذا كانت الشعوب المجاورة قد سبقت في تأليف الملاحم أم لا ، و بالبحث في ملاحم الشعوب المجاورة مثل العراق و الشام و اليونان ، نستنتج شيئاً هاماً هو أنّ السومريين هم الشعب المجاور لمصر و سبقها إلى كتابة الملاحم ،فالفينيقيون كتبوا ملاحمهم في فترة مقاربة لعهد الدولة الحديثة الفرعونية أي بعد كتابة ملحمة سنوهي (٤) والشاعر اليوناني هوميرس الذي ألف أقدم ملاحم اليونان (الإلياذة و الأوديسيا) ظهر في القرن التاسع قبل الميلاد (٥) مما يدل على أن الفراعنة سبقوا كل هؤلاء في كتابة الملاحم ، و بالتالي لا يُعْقَلُ أن يأخذ الفراعنة عن هؤلاء فن الملاحم ، أما بالنسبة للسومريين فمن الممكن مقارنة الملحمة الفرعونية "سنوهي" بالملحمة السومرية "جلجامش" ، فإذا كانت ملامحهما متشابهة فهذا دليل على أن الملحمة الفرعونية تأثرت بالملحمة السومرية ، و إذا وُجِدَ اختلاف فهذا دليل على عدم تأثر الملحمة الفرعونية بالملحمة السومرية .

و قبل أن نتحدث عن ملامح الملحمتين يجب أولاً أن نذكر نبذة عن مضمون الملحمتين .

ملحمة "جلجامش" السومرية :

تتكون ملحمة جلجامش من ست قصائد كل قصيدة منها تمثل ملحمة مستقلة بذاتها ، و تتحدث هذه الملحمة عن بطل يسمى "جلجامش" كان ملكاً على مدينة سومرية في العراق تسمى "أُرُك" و كان دائماً يقوم بمغامرات خارج المدينة من أجل القضاء على الأعداء الذين يهددون بلاده ، و كان يقوم بهذه المغامرات و هو بصحبة صديقه الحميم "أنكيدو" ، و كل مغامراته أو معظمها كانت مع وحوش أو

(٤) من كتاب "سلسلة الأساطير السورية" تأليف / رينيه لابات ، موريس سنايزر ، موريس فييرا ، أندره كاكو . ترجمة / مفيد عرنوق

(٥) كتاب "محاضرات في التأثيرات الشرقية في الحضارة اليونانية" تأليف / دكتور السيد مصطفى عجاج ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، قسم الحضارة الأوربية ص٦٧

آلهة . و من أشهر هذه المغامرات مغامرته التي قام بها لقتل وحشٍ اسمه "هواوا" كان يسكن في بلاد الأرز _ أي لبنان الحالية_ و يقتل الناس و ينشر الرعب في نفوسهم ، فخرج له جلجامش ملك "أرك" و صديقه أنكيدو و ظلا يقطعان أشجار الأرز حتى بلغا مخبأ الوحش "هواوا" فاحتالا عليه حتى تمكنا منه و قيداه . فتوسل "هواوا" إلى جلجامش أن يتركه و وعده أنه لن يؤذيه ، فطلب جلجامش من صديقه أنكيدو أن يخلي سبيل هواوا لكن أنكيدو رفض ذلك خوفاً من أن يغدر بهما ذلك الوحش و انتهى الأمر بقتل الوحش "هواوا" .

ملحمة "سنوهي" الفرعونية :

تتحدث هذه الملحمة عن "سنوهي" قائد الجيش المصري في عهد الفرعون "أمنمحات الأول" الذي بلغه خبر وفاة الفرعون و تولي ابنه "سنوسرت الأول" الحكم ، و لما كان القائد "سنوهي" على خلاف مع "سنوسرت الأول" فقد خاف أن يؤذيه الفرعون الجديد بعد توليه الحكم . فهرب "سنوهي" من مصر إلى سوريا و هناك أكرمه ملك "سوريا" لما عرف حقيقته و جعله أميراً على إقليم سوري اسمه "يا" يسكن به العديد من المصريين ، و حين أتت بعض القبائل الأجنبية للإغارة على سوريا عين ملك سوريا البطل المصري "سنوهي" قائداً للجيش السوري ، فحارب سنوهي القبائل الأجنبية و انتصر عليهم . بعد ذلك تحداه بطلٌ سوري حاقد عليه و دعاه للمبارزة ، فبارزه سنوهي و انتصر عليه و قتله ، فمنحه الملك أملاك ذلك البطل السوري . و في النهاية شعر سنوهي بالحنين إلى وطنه ، فأرسل إلى فرعون مصر يرجوه أن يسمح له بالعودة إلى مصر ليقضي فيها بقية عمره ، فوافق الفرعون على الفور و سمح له بالعودة إلى مصر .

بالاطلاع على الملحمتين سنجد اختلافاً كبيراً بين الملاحم السومرية و الفرعونية في عدة وجوه مثل :

١. تُكْتَبُ الملحمة السومرية شعراً ، بينما الملحمة الفرعونية مكتوبة نثراً .
٢. في الملحمة السومرية تلعب الآلهة دوراً كبيراً جداً و دور البشر مهمَّشٌ تقريباً ، بينما الملحمة الفرعونية يلعب فيها البشر كل الأدوار تقريباً و لا وجود للآلهة إلا على ألسنة أتباعهم من أبطال الملحمة .
٣. في الملحمة السومرية تُرْوَى مغامرات البطل بصيغة الغائب لأن راوي الملحمة يرويها باعتبارها تاريخاً قديماً حدث في الماضي ، و في الملحمة الفرعونية تُرْوَى مغامرات البطل بصيغة المتكلم لأن راوي الملحمة هو بطل الملحمة نفسه و يرويها باعتبارها من مذكرات حياته أو سيرته الذاتية .

من خلال هذا يتضح لنا أن الملاحم الفرعونية لا يمكن أبداً أن تكون مأخوذة من الملاحم السومرية أو أي ملاحم أجنبية أخرى . و بذلك يكون جلياً أن الملحمة الفرعونية ابتكرها الفراعنة بأنفسهم دون أن يتأثروا في إنشائها بملاحم أجنبية .

_٨_

الفصل الثالث
كيف ظهرت الملاحم الفرعونية ؟

لقد استنتجنا الآن أن الملحمة الفرعونية التاريخية قامت من تلقاء نفسه دون أن تؤخذ فكرتُها من حضارة أخرى ، لأنها تختلف في سماتها عن كل الملاحم التي ألفتها الحضارات الأخرى ، و لكن لكي نتأكد من صحة هذا الاستنتاج يجب أن نعرف أيضاً كيف ظهر فن الملاحم عند الفراعنة و ما الغرض من وراء اهتمام الفراعنة بكتابة الملاحم ؟

لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن نتتبع الملاحم الفرعونية منذ نشأتها و حتى نهاية العصر الفرعوني .

ذكرتُ في بداية المقال أنّ من أقدم الآثار التي تركها لنا الفراعنة لتحكي عن بطولاتهم كانت صلاية الليبيين التي تصور ملكاً مصرياً يسمى الآن الملك عقرب لأنه اتخذ العقرب رمزاً له و هو يفتح حصناً من حصون أعدائه ، كذلك توجد لوحة حجرية ظهر فيها الملك نعرمر موحد القطرين و هو يمسك بيده رأس أسير من أعدائه . بعد ذلك حين عرف الإنسان المصري الكتابة وجدنا القائد "وني" قائد الجيش المصري في عهد الفرعون "بيبي الأول" أحد فراعنة الأسرة السادسة في نهاية عهد الدولة القديمة يكتب مذكراته و يحكي فيها بأسلوب موجز قصة مغامراته و حروبه التي خاضها من أجل مصر و فرعونها . هنا نلاحظ أن بطل القصة هو نفسه من كتبها _ و هذا هو ما أعتقده _ لأن القصة تُحكى بصيغة المتكلم على لسان بطل القصة نفسه ، و من ثم يتضح أنّ القصة كُتبت لأن صاحبها أراد من خلالها أن يخلد التاريخ ذكراه و هي في الحقيقة تعتبر مذكرات لحياة هذا القائد أو سيرة ذاتية له ، و هذه القصة مكتوبة نثراً و ليس شعراً مثل ملاحم الشعوب الأخرى . و في عصر الدولة الوسطى _ و تحديداً في بداية الأسرة الثانية عشرة الفرعونية _ نجد ملحمة عظيمة تروي قصة مغامرات قام بها قائد الجيش المصري في عهد الملك "أمنمحات الأول" الذي شاع ذكره على الألسنة باسم "سنوهي" و اسمه الأصلي "سانهت" بمعنى شجرة الجميز(٦) ، و نجد في هذه الملحمة أيضاً أن من المرجح أن يكون مؤلفها هو بطلها نفسه ، لأنها أيضاً تُروى

(٦) كتاب "تاريخ الحضارة المصرية القديمة" الجزء الأول العهد الفرعوني

بصيغة المخاطب على لسان بطلها نفسه ، و هذه الملحمة أيضاً مكتوبة نثراً لكن بطلها يلجأ أحياناً إلى أن يقول بعض أبيات الشعر حين يمدح الفرعون "سنوسرت الأول" أو يمدح مصر ، و كل الملاحم الفرعونية التي قرأتها منذ عصر الدولة الوسطى حتى نهاية عصر الدولة الحديثة تسير على نفس المنوال فيما عدا ملحمة "حصار يافا" التي حدثت قصتها في عهد الفرعون "تحتمس الثالث" حيث رُوِيَتْ قصتُها في صيغة الغائب مما يدعوني إلى الاعتقاد بأنه ربما يكون كاتب القصة شخصٌ آخر غير بطلها القائد "تحوتي" أحد قادة الجيش المصري في عهد "تحتمس الثالث" و ربما كانت تقريراً عسكرياً عن هذه الحملة _و هي الاستيلاء على مدينة يافا بالشام_ و لكن هذا التقرير كُتِبَ بأسلوب ملحمي ، و أيضاً كُتِبَ نثراً، و هكذا نجد معظم الملاحم الفرعونية في تلك الفترة تُكتب نثراً فيما عدا ملحمة "قادش" التي تروي قصة معركة خاضها الفرعون "رعمسيس الثاني" ضد الحيثيين ، هذه الملحمة كُتِبَ جزءٌ منها نثراً و جزء آخر شعراً . و إذا انتقلنا إلى العصر المتأخر نجد كلير لاكونت صاحب كتيب "الأدب المصري القديم" يذكر أنّ الفراعنة في ذلك الوقت ألفوا ملاحم تأثروا فيها بملحمتي "الإلياذة" و "الأوديسيا" للشاعر اليوناني هومِرُس .

من خلال ما سبق يتضح أنّ الملحمة الفرعونية نشأت كالتالي :

كان ملوك و أبطال الفراعنة منذ عصور ما قبل التاريخ يسعون دائماً إلى تسجيل بطولاتهم التي قاموا بها و مغامراتهم التي خاضوها في حياتهم حتى يعرف من يأتون بعدهم مقدار عظمتهم فيفتخرون بهم و بالخير يذكرونهم ، و هذا يظهر جلياً مما قاله الفرعون "رعمسيس الثاني" في ملحمة "قادش" لجنوده الذين هربوا و تخلوا عنه في ميدان المعركة "سيتحدث الناس بترككم إياي وحيداً"(٧) أي أن الفرعون كان مشغولاً في هذه الملحمة بما سيقوله الناس عنه فيما بعد . و لما كان المصري القديم لم يعرف الكتابة بعد ، فقد عمد هؤلاء الملوك و الأبطال إلى تصوير أنفسهم في رسومات تجسد على الطبيعة ما فعلوه . و بعد أن عرف المصري القديم الكتابة لجأ كل بطل إلى أن يكتب قصة حياته في هيئة مذكرات أو سيرة ذاتية يسجلون فيها ما قاموا به من جلائل الأعمال التي يفتخرون بها و يسعون إلى أن يخلدها التاريخ و تعرفها الأجيال القادمة ، بعد ذلك تطور أسلوب كتابة هذه المذكرات بإدخال عنصر البلاغة فيه فصارت مذكرات هؤلاء الأبطال قصصاً أدبية ، ثم ركَّزَ مؤلفو هذه المذكرات على الاهتمام بالتحدث باستفاضة و بأسلوب أدبي

(٧) كتاب "مصر القديمة" تأليف د/ سليم حسن ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ الجزء السادس ص٢٥٨

شيق عن مغامراتهم و بطولاتهم التي قاموا بها ليظهروا للقاريء بشكل جليّ عظمتهم و قوتهم ، فأصبحت تلك المذكرات ملاحم أدبية عظيمة تزخر بالكثير من الأساليب البلاغية الجميلة مثل قصة سنوهي ، لكنها ظلت تكتب نثراً و لم يلجأ مؤلفوها إلى كتابتها شعراً مثل مؤلفي ملاحم الشعوب الأخرى كالبابليين و الكنعانيين و اليونان و الرومان و غيرهم ، ذلك باستثناء ملحمة قادش التي كانت بعض فقراتها مكتوبة شعراً منثوراً و البعض الآخر شعراً منظوماً (٨) . و في العصر المتأخر اطلع الفراعنة على ملحمتي هومرُس الإلياذة و الأوديسيا اللتان تتحدثان عن قصة حرب طروادة المشهورة ، فتأثروا بهاتين الملحمتين في كتابة ملاحمهم فيما بعد ، و يرى البعض أنهم في ذلك الوقت لم يكتبوا ملاحم تروي قصص بطولاتهم بل كتبوا ملاحم يتحدثون فيها عن أبطال يأملون في أن يظهر أبطال مثلهم يخلصونهم مما هم فيه من ظلم و هوان (٩) .

<u>الهوامش</u>

(٨) كتاب "مصر القديمة" تأليف د/ سليم حسن ، الجزء الثامن عشر ، مكتبة الأسرة٢٠٠٠ ، ص ١٩٩

(٩) كتاب (مصر وعالم البحر المتوسط) ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢

_ ١١ _

خاتمة

مما سبق و تم ذكره عن الملاحم الفرعونية يتضح لنا ما يلي :
كان للفراعنة ملاحم تعبر عنهم و عن تاريخهم و تحكي قصصاً عن بطولاتهم و أمجادهم مثلهم في ذلك مثل كل شعوب العالم القديم ، و لم يأخذ الفراعنة فكرة أدب الملاحم من شعوب أخرى مثلما أخذ الرومان هذه الفكرة من الأدب اليوناني القديم ، بل كان فن الملحمة لدى الفراعنة ابتكاراً فرعونياً خالصاً لم يتأثروا في إنشائه بأي أدب من آداب الأمم الأخرى بل كان أدباً مصرياً مستقلاً أنشأه الفراعنة من تلقاء أنفسهم ، ليس هذا فقط بل إنهم أيضاً تميزوا في ملاحمهم عن كل ملاحم الشعوب الأخرى فقد كان لملاحمهم طابعاً خاصاً يختلف اختلافاً كبيراً عن الطابع المشترك للملاحم القديمة الأخرى . فالملاحم البابلية و الفينيقية و اليونانية و الرومانية كانت تُكْتَبُ شعراً ، أما الملاحم الفرعونية كانت تُكْتَبُ نثراً أو يكتب جزء من الملحمة شعرا و الجزء الآخر نثراً مثلما في ملحمة "قادش" لكنها كانت تحوي الأساليب البلاغية التي يحويها الشعر مثل التشبيه و الاستعارة و المجاز ، إلخ . كذلك ملاحم الشعوب الأخرى كان الشعراء يكتبون قصصها بعد مرور قرون على حدوثها ، و كانوا يكتبونها لأغراض دينية مثلما في ملحمة "بعل" الكنعانية (الفينيقية) أو لمدح الملوك أو إطاعة لأوامر الملوك أو لكسب لقمة العيش ، أما في الملاحم الفرعونية كانت الملحمة تُكْتَبُ في نفس العصر الذي حدثت فيه قصتها و كان بطل الملحمة هو نفسه الذي يؤلفها ليس ليمدح أحد و لا ليكسب لقمة العيش إنما ليعرف الناس فيما بعد قصته و يخلده التاريخ بها . كذلك ملاحم الشعوب الأخرى كان يكثر بها الأحداث الخيالية أو الأساطير و يقل بها الأحداث الواقعية ، أما الملاحم الفرعونية كانت على العكس تماماً تكثر بها الأحداث الواقعية و تقل بها الأحداث الخيالية أو الأساطير . و كانت الملاحم التاريخية في الحضارات الأخرى تُكتَبُ لتسجل تاريخ الأمة كلها من خلال بطل الملحمة ، أما الملحمة الفرعونية فكانت تسجل تاريخ بطلها فقط ، و لأن بطل الملحمة الفرعونية رجل ذو أهمية في الدولة فقد كانت تسجل بعض الأحداث التاريخية التي عاشها البطل و تعرض لها في حياته و السبب في هذا الاختلاف واضح و هو أن الملحمة الفرعونية كان بطلها هو مؤلفها فمن الطبيعي أن يتعمد بطل الملحمة إظهار نفسه أكثر من أي شخص آخر ، أما ملاحم الشعوب الأخرى فكان شاعرها لا بد أن يتحدث فيها عن كل من يعرفهم

ممن عاصروا بطل الملحمة حتى يحكي للناس تاريخ ذلك العصر كاملاً ذلك لأن من عاصروا الملحمة لم يعاصروا أحداثها ، أما من عاصروا تأليف الملحمة الفرعونية عاصروا أحداثها فلم يكونوا بحاجة إلى معرفة تفاصيل عصر أحداث الملحمة لأنهم بالفعل كانوا يعيشونه . بهذا يتضح أن الملاحم الفرعونية كانت فناً مصرياً خالصاً مستقلاً بذاته و له ملامح و سمات خاصة تميزه عن كل الملاحم الأخرى من آداب الشعوب القديمة . كذلك كان الفراعنة من أقدم شعوب العالم الذين أنشأوا أدب الملاحم و استخدموه لتسجيل تاريخهم ، و لم يسبقهم في هذا الشأن إلا السومريون و هم أقدم الشعوب التي سكنت بلاد العراق ، و لم يتقيد الفراعنة بأسلوب معين أو سمة معينة في كتابة الملحمة بل ظلوا يطورون أساليبهم و يستفيدون من غيرهم في كتابة ملاحمهم حتى إذا انتهى العصر الفرعوني كان للفراعنة تراثٌ وفيرٌ من القصص الملحمية العظيمة التي تروي أحداثاً هامة من تاريخهم شأنُهم في هذا شأن كل الحضارات القديمة .